سلسلة

رحلات ابن بطوطة

العدد ٦

ابن بطوطة فى جزر المديف والفلفل

نوال مهنى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة
المــؤلــف : أ. نوال مهنى
تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشـــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون
الدور الأول – شقة ٦
ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيســى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقــم الإيـــداع : ٩٩/٢٣٧٨
الترقيــم الدولــى : ISBN
977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجى الشهير بابن بطوطة القيام برحلة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكن معه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان ينزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبون

به. وفى عصر ابن بطوطة لـــم يكـــن النـــاس يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجـارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمراً شـــائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى الســـفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العـــالم القديـــم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائـــف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالـــها عـــدة لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنـــه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابـــن بطوطـــة

رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بين بلد وآخر ولم يشغل نفسه بالعمل أو التجارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلته دينية اجتماعية ولم تكن من أجل كشوف جغرافية أو بحوث علمية. وكان عمر ابن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البلاد فأكرمه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحين انتهى من كتابتها أسماها (تحفة النظار فى غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعل. وكان زمن

الرحلة القرن الرابع عشر الميـــلادى، ويعتـــبر ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصـــو الوسيط ولا زالـــت أخبـــار رحلتـــه العجيبـــة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطـوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفـــــة

نوال مهنى

ابن بطوطة فى جزر المديف والفلفل

ظل صديقنا ابن بطوطة ينتقل برا وبحرا متابعا رحلته التى لم يحدد لها نهاية حتى وصل بعد عناء ومشقة إلى جزر المليف، وكان العرب يسمونها جزائر ذيبة المهل وهى تبعد عن سيلان ٦٤٥ كم شرقا وهى مجموعة من الجزر الصغيرة المرجانية يبلغ عددها ألفىّ جزيرة. وكل مجموعة من الجزر متقاربة على شكل دائرة وتقدر مساحة هذه الجزر بحوالى (٢٩٨) كيلومترمربع وأهل هذه الجزر أمنين مسالمين صغار الأجسام، ورغم كثرة الجزر إلا أن المسكون منها ٢٢٠ جزيرة فقط وسكان

جزر الملديف أغلبهم مسلمون يعظمون رجـــال العلم والدين ويكرمون ضيوفهم.

وعندما دخل ابن بطوطة هذه البلاد دخلـــها فى هيئة الفقيه المسلم القادم من بـــلاد العـــرب وكان أهل الجزر يحبون العــــرب. فاســـتقبلوه بحفاوة وترحيب كبيرين وقدموا له سمك التونـــة وهو الطعام الرئيسى لهم ثم حلواء مكونة مــــن دقيق القلقاس الجاف وحليب جوز الهند.

وأهل جزر الملديف يلبسون أزياء فى غاية الغرابة وهى عبارة عن فوطة كبيرة يلفون بـــها نصفهم الأسفل فتبدو مثل الجيبة ويضعون على أكتافهم وظهورهم "أحرمــــة واحدهـــا حــــرام"

وبعضهم يلبس عمامة. ولا يعرفـــون الأحذيـــة مطلقا فجميعهم حفاة لا فرق بين رجل وســـيدة أو فقير وغنى.

وأما مساكن أهل الجزيرة فهى مصنوعـــة من الخشب وشوارعها كانـــها بســـتان تظللـــه الأشجار وهى ضيقة مثل زقاق صغير..

وأمام كل بيت إناء به ماء وحصير غليـــظ من الليف وكل داخل إلى البيت يغســـل قدميـــه ويمسحهما فى الحصير حرصا علـــى نظافـــة المنزل وكذلك يفعلون فى المساجد.

ويحكى صديقنا ابن بطوطة أن سكان هــذه الجزر حين زارها لا يعرفون شيئا عن النقــود وكانوا يتعاملون بالودع وهو محار صغير.

وكل عدد معين من الودع له اســم يمــيزه وكأنه عملة مقررة ومشى ابــن بطوطــة فــى السوق يشاهد البيع والشـــراء ليعــرف كيــف يتعامل الناس بالودع.

فعرف أن كل مائة ودعة تسمى سياه ومائة الآلف تسمى بستو، وكل أربع بستات تســـاوى دينارا تقريبا هكذا قدرها ابن بطوطة.

ولعل ما أثار دهشة ابن بطوطة فى هـــذه الجزر البعيدة هو أن سلطانة البلاد سيدة اسـمها

خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ويبـــدو أن أباها كان سلطانا على جزر المالديـــف ثـــم توفى ولم يكن له ولد فورثـــت الحكـــم عنـــه وتزوجت من وزيرها جمال الدين وأنجبت بنتا.

وتعرف ابن بطوطة على البيـــت الحـــاكم وأكرمته السلطانة خديجة وزوجها جمال الديـــن وعيناه قاضيا على البلاد على أن يقضي بالحق بين العباد.

وهكذا أصبح ابن بطوطة قاضيا وتـــزوج من وصيفة السلطانة. وعاش عيشـــة الأمـــراء والحكام ولكنه للأسف أساء إلى ولاية القضـــاء ولم يحسن التصرف ولم يكن على علم بالفقـــه

والقضاء فثارت معه المشاكل وتجمعت عليه المتاعب وخصوصا حينما حكم في قضية تخص أحد الوزراء ولم يحسن الحكم فقامت العدواة بينه وبين هذا الوزير.

وعموما ابن بطوطة كان همه فى الحياة السياحة والتجوال ولم يكن يحسن القضاء ولا يفهم أصوله ولذلك كره الناس ولايته وشكوه إلى البندر أى الحكومة.

وانتهى الأمر بأن استدعاه الوزير صاحب القضية التى أساء ابن بطوطة الحكم فيها وأمره أن يسدد ما عليه من ديون ويعطى النساء صدقاتهن ثم يغادر البلاد فورا.

وخرج ابن بطوطة من جزائر ذيبة المـــهل متوجها إلى الساحل وركب إحـــدى المراكــب وسار حتى وصل إلى جزيرة سرنديب. وفـــى جزيرة سرنديب جبل عظيم يقـــال إنه أعلــــى جبل فى الدنيا وفوقه أثر قدم سيدنا آدم عليــــه السلام لأنه نزل فوق هذا الجبل حين هبط مـــن الجنة.

وصعد ابن بطوطة فوق قمة الجبـــل ورأى آثار قدم آدم ثم زار مغارة الخضر وهى فـــوق الجبل أيضا وسيدنا الخضـــر كـــان معـــاصرا لسيدنا موسى وله معه قصة شهيرة ذكرت فـــى القرآن الكريم وكان جوالا.

وسرنديب هى نفسها جزيرة سيلان التى نفى إليها الزعيم أحمد عرابى والشاعر محمود سامى البارودى رب السيف والقلم بعد فشل الثورة العرابية، وتحكم الإنجليز فى مصير البلاد. وتشتهر جزيرة سرنديب أو سيلان بالشاى الفاخر الذى تزرعه وتصدره لدول العالم وطاف ابن بطوطة بأنحاء الجزيرة وقابل ملكها الذى أكرمه وأعطاه الملابس الفاخرة والجواهر واليواقيت وبالطبع كل جوهرة وياقوتة تساوى مبلغا كبيرا من المال.

وسمع ابن بطوطة أن صديقه الوزير جمال الدين زوج السلطانة خديجة قد توفى، وأنها قد

تزوجـــــــت مـــــــن الوزيـــــــــر عبد الله الحضرمى الذى كانت قضيته الســـبب فى خروج ابن بطوطة من جزر الملديف.

وترك ابن بطوطة سيلان وركـــب إحـــدى السفن ومعه ركاب آخرون فلما كانت الســـفينة فى عرض البحـــر هجـــم عليـــهم القراصنـــة لصوص البحر فى اثنى عشر مركبـــا حربيـــا واحاطوا بالسفينة وتغلبوا عليهم وأخذوا كل مـــا معهم من بضائع وأموال وجواهر وملابس.

وخسر صديقنا ابن بطوطة كل ما يملكـــــه وكل ما ادخره لوقـــــت الشـــدة. ولـــم يـــترك

القراصنة للركاب شيئًا ســـوىٰ الســراويل أى البنطلونات أو ما يشبهها.

وسارت السفينة فى البحر بركابـــها حتـــى كادوا يموتون من شدة البرد والجـــوع حتـــى رست على الساحل فـــنزل الركـــاب وهـــرب اللصوص ومعهم السفينة.

وتوجه ابن بطوطة إلى زاوية قريبة وطلب من القائمين عليها بعض الملابس بعد أن حكـــى لهم ما حدث له مع القراصنة.

فبعث الفقيه له ثوبا وأرسل القـــاضى لـــه عمامة وبعد أن استراح قرر مواصلة الرحلـــة [إلى جزر الفلفل والقرنفـــل واللبـــان] وهـــى

مجموعة من الجزر تقع جنوب شـــــرق آســـيا بالقرب من بحر الصين وتشمل جاوه والملايـــو وملقا ومجموعة جزر اندونيسيا أو التى تتكـــون منها دولة اندونيسيا اليوم ومن أشهرها جزيـــرة سومطرة.

وهى بلاد إسلامية ودخلها الإســـلام علـــى أيـــدى التجـــار مـــن حضرمـــوت والأتـــراك العثمانيين والهنود.

وكان أهل الجزر يرحبون بكل ضيف مسلم يدخل أراضيهم النائية وخاصة إذا كـــان مـــن الفقهاء أو العلماء أو الزهاد أو أهل التصوف.

دخل ابن بطوطة جزيرة سومطرة وقـــابل سلطانها فأكرمه وأعطاه هديـــة عبـــارة عـــن مجموعة فوط مختلفة النسيج من صناعة أهـــل الجزيرة، وأثوابا وعمائم وجـــاريتين وخـــادمين ودارا يقيم فيها. وسعد ابـــن بطوطـــة بصحبـــة السلطان وتحدث معه كثيرا عن شـــئون البـــلاد والعباد وحكى له ابن بطوطة عن بلاده وعـــــن رحلته وما لقيه من مخاطر ومواقف.

وشاهد ابـــن بطوطـــة ركـــب الســـلطان وهويشبن كثيرا سلاطين الهند فيركب الســـلطان على الفيل ويسير على جانبيه مائة من الأفيـــل، خمسون على اليمين وخمسون على الشمال ثـــم

مائة فرس من كل جانب، ويقف الركب في مناطق معينة وأمامه عدد من الخيول المزينة بالحرير ومزينة بخلاخيل وعقود من الذهب فترقص الخيول بين يدى السلطان.

وقد رأى ابن بطوطة أشجار اللبان والعود الهندى والقرنفل والفلفل الأسود.

وشجرات الفلفل تشبه دوالى العنب وتثمر عناقيد صغيرة وتجمع مع بداية الخريف وتترك على الحصر عدة أيام حتى تجف من الشمس ويغمق لونها. ويبيعونه فى أسواق الدنيا بأثمان غالية.

وتشتهر هذه البلاد بالتوابل بصفة عامة مثل البهارات واللبان وهو من أجود الأصناف وأيضا القرنفل، ويقبل التجار على شرائه ويبيعونه بالأوقية مثل الفلفل الأسود. ولكنهم يحضرون هنا لشرائه من هذه البلاد بكميات أى بالجملة من المنتج الأصلى وهم أهل البلاد بأسعار معقولة.

وحين وصل ابن بطوطة إلى هذا الأرخبيل (وكلمة أرخبيل معناها مجموعة من الجزر متجاورة) عرف أن سلطان البلاد يلقب دائما بالظاهر ثم عرف أن لكل جزيرة سلطانا، وكان إعجابه شديدا بسلطان سومطرة وأهل البلاد



يسمونها أحيانا جاوه الصغرى، بينما يطلقـــون اسم جاوه على جزيرة جاوه الكـــبرى، ولـــهذه الجزيرة شهرة خاصة فى صناعة المشـــغولات الذهبية وتطعيمها بالأحجار الكريمة.

وأهل هذه البلاد يتفننون فى النقش والحفـــر اليدوى مثل أصحاب خان الخليلى فى مصـــر، وهم صناع مهرة ولا زالت المشغولات الذهبية لجزيرة جاوه تغزو العالم حتى اليوم.

وتجول ابن بطوطة بن الجزر فزار جزيرة ملقا وكان سلطانها وثنيا أى كافرا فلم يعجـــب ابن بطوطة وحينما سمع السلطان بخـــبر ابـــن بطوطة دعاه إلى قصره فلما دخل عليه. قـــال :

السلام على من اتبع الهدى وفهم الرجل قصـــد ابن بطوطة وهو أنه لا يريد إلقاء السلام وهـــو تحية المسلمين عليـــه فغضـــب، وقـــال لابـــن بطوطة: لك أن تقيم فى ضيافتنا ثلاثة أيام ثـــم تنصرف من بلادنا.

وخاف ابن بطوطة من غضـــب الســـلطان وتوقع أن يدبر لـــه مؤامـــرة فجمـــع الـــهدايا والأثواب التى أهداها له سلطان سومطرة وقرر الخروج من هذه الجزيرة فى سرعة وحذر.

واثناء تنقل ابن بطوطة وسياحته فى جـــزر الفلفل والقرنفل (وهى جزر اندونيسيا الحاليـــة) أصيب بالحمى ونصحه بعض معارفه من أهـــل

البلاد بشرب منقوع التمـــر الـــهندى فاشـــترى رطلا منه ونقعه فى الماء وراح يشـــرب منـــه صباحاً ومساء وامتنع عن الطعـــام فشـــفاه الله وعافاه.

وعرف ابن بطوطة أن شـــــعوب جنـــوب شرق آسيا وخاصة سكان الجزر وسكان الـــهند يعتبرون التمر هندى دواءً ويصفونه لكل علة.

المهم أن صديقنا ابن بطوطة قرر الرحيـــل عن هذه الجزر ومتابعة الرحلة. فتوجـــه إلـــى ساحل البحر منتظرا قدوم سفينة تحمله إلـــى أى مكان على وجه الأرض. ورست سفينة علـــى الشاطئ فركبها ابن بطوطة ومكث بـــها حتـــى

أقلعت وسارت فى بحر غريب يسميه الملاحون البحر الكامل.

ورغم اتساع البحر فهو راكــد ليــس بــه حركة أو أمواج ولا تهب عليه الرياح ويميـــل لونه إلى الحمرة .

وكانت السفن والمراكب تسير فيـــه ببــطء شديد عن طريق المجاديف، والسبب هو عـــدم وجود رياح تساعد السفن علـــى الســير، ثــم وصلت السفينة إلى الشاطئ بعد سبعة وثلاثيــن يوما كاملة.

وهذا البحر معروف عند جميع الرحالة وهو فى أقصى الشرق وهو مشهور باسم بحر الظلمة.

وصديقنا ابن بطوطة يَهْوى ركوب البحر ولا يهابه ومعظم رحلاته كانت بحرية. وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أنه نشأ فى مدينة ساحلية وهى مدينة طنجة بالمغرب العربى فاعتاد على رؤية البحر وركوبه. وخلال رحلته ركب بحار الدنيا كلها أو بمعنى اصح بحار العالم القديم المعروفة فى عصره وكم تعرض للمخاطر من الغرق إلى السرقة ولكن كان

يتغلب على كل ذلك بفضل صحته القوية ونفسه الراضية وحبه للسياحة.

ونزل ابن بطوطة من السفينة وراح يسأل ويتعرف على هذه البلاد وأحوالها ويشاهد ما بها من أسواق وسلع ومعالم، وكعادته سأل عن حاكم المدينة أو سلطاتها فعرف أن هذه المدينة سمى طوالسى وتحكمها سيدة تسمى السلطانة الباسلة. وكانت سيدة قوية ذات سلطة ولها جيش من النساء المقاتلات اللواتى يجدن الرماية والطعان ويدخلن فى حروب مع الدول المجاورة. وأهل البلاد يحبون هذه السلطانة لأنها أشاعت العدل والأمن فى البلاد ولذلك فهم

يعظمون قدرها ويدينون لها بالولاء وسمع ابن بطوطة حكايات كثيرة عن هذه السلطانة الباسلة. ورغم ذلك لم تعجب ابن بطوطة الإقامة فى هذه المملكة النسائية.

ولم تطل إقامته طويلا فى طوالسى هذه وفكر فى الرحيل إلى بلد آخر وسأل عن البلاد المجاورة فعرف أنه على حدود الصين وأن البحر الذى ركبه ويسمونه البحر الكامل هو بحر الصين.

وكان ابن بطوطة يسمع كثيرا عن بلاد الصين البعيدة النائية التى تقع فى آخر الدنيا

ولكنه لم يصدق أنه على حدود الصيـــن فعقــد العزم على السفر إليها.

فودع معارفه وأصحابه وجمـــع أشــياءه وأثوابه وخرج إلى الساحل ينتظر قدوم الســفن والمراكب حتى يركب البحر متوجها إلى هـــذه البلاد الواسعة الشهيرة التى تسمى الصين.

☆ ☆ ☆